المحددات الأساسية للثقافة

فيما يلي بعض المحددات الأساسية التي تلعب دورًا أساسيًّا في تشكيل الثقافة الخاصة بالشعوب والتأثير فيها والتأثُّر بها.

الثقافة والدولة والأمة:

سبق أن هناك اتجاهين أساسيين لتفسير الثقافة، هما الاتجاه المادي والاتجاه المعرفي. وعند الحديث عن الثقافة وعلاقتها بالدولة نجد أن بعض مناهضي الاتجاه الرأسمالي يرون أن الاتجاه المادي في تفسير الثقافة هو في الحقيقة بعض الأنماط التي أراد أصحاب الاتجاهات الرأسمالية الترويج لها في شكل ثقافة لخدمة مذهبهم الرأسمالي.

يُعْتَبَرَ إيجلتون (Terry Eagleton) أحد أبرز مَن درسوا هذه العلاقة وعبَّروا عنها، ويظهر ذلك في أحد مقولاته الشهيرة: "السياسة هي الدولة، والثقافة هي الأُمَّة"، ومقولته: "السياسة توحِّد، والثقافة تفرِّق".

فأما كون السياسة توحِّد والثقافة تفرِّق، فيمكن تفسيره من خلال مثال الاتحاد الأوروبي، فالدول الداخلة في هذا الاتحاد لها ثقافات متفرِّقة ومختلفة في أشياء كثيرة ومتنوعة، إلا أن السياسة نجحت في توحيد هذه الشعوب المتفرِّقة، حتى وإن كان ذلك قد استغرق وقتًا ومجهودا كبيرا.

ولا شك أن إيجلتون يتحدث عن الواقع الذي يعيش فيه، ولا يمكن أن تعمَّم مقولاته هذه على جميع الحالات، إذ نجد مثلا في عالمنا الإسلامي العربي دولاً كثيرة لم تنجح السياسة في توحيدها، بل ربما كان للسياسة أثرًا في زيادة مشكلاتها وتفرُّقها، مثل السودان وجنوب السودان.

وأما كون السياسة هي الدولة والثقافة هي الأُمَّة فيوضِّحُها مثال الهجرة، فمثلا إذا قام بعض المسلمين بالهجرة إلى أحد الدول الأوروبية، تجد أن المتطلبات النظرية المطلوبة منه قد يتمكن تحقيقها لينضم بالفعل إلى هذه الدولة سياسيًّا، بينما يظل هذا الشخص منتميًا إلى ثقافته الإسلامية ولعِرْقِه الأصلي فكريًّا، ويحرص على تعليم أولاده هذه الأنماط الثقافية التي خرج منها، ولذلك فإن مفهوم الأمة أكثر اتساعًا وأكثر رسوخًا من المفهوم السياسي للدولة.

الثقافة والدين:

يرى إيجلتون أن الثقافة ذات صلة كبيرة بالعقيدة والدين، وأنه لولا الدين لَضَعُفَتْ الثقافة ووَهَنَتْ. ومن المثير أن إيجلتون قد فَسَّر الاتحاد الحالي في أوروبا بأنه اتجاه لتكوين حِلْف مقدَّس تجاه العدو، كالحلف الأوروبي الذي تشكَّل في القرن الرابع عشر والخامس عشر ضد المسلمين، والمعروف باسم الحملات الصليبية، ولا شك أن هذا التفسير يوضِّح سبب رفض عضوية بعض الدول في هذه الأحلاف. وبنفس الطريقة يمكن تفسير الأحلاف الأخرى، كحلف الناتو مثلا، فهي عبارة عن مصالح سياسية واقتصادية مشتركة دفعت هذه الدول إلى الوحدة.

فإيجلتون يفسِّر التوجه إلى مثل هذه الأحلاف بأنه إيمان بحتمية قيام أحلاف بروح مسيحية مقدسة ضد العدو، حتى ولو لم يعد هذا العدو موجودا، لأن مثل هذه الروح هي القادرة على إعادة إحياء الثقافة الأوروبية وإعطائها زخمها. ومع ذلك فقد حذر إيجلتون من الاستمرار في مثل هذا الاتجاه، لأنه إما أن يتسبَّب في مزيد من العنف والدمار والكراهية في هذا العالم، أو سيولِّد حالة طائفية يتشظَّى العالم على إثرها بناءً على موقفه من هذا العدو الذي قد لا يكون موجوداً أصلا.

ولا شك أن بعض هذه الأمور تحتاج إلى تفسير في ظل العَوْلَمَة السائدة في عالمنا ومحاولة تنميط العالم وَفْقًا للثقافة الغربية، فالغرب يحرص على نشر ثقافته تلك من أجل تحقيق بعض المكاسب الاقتصادية، بل ويعتبر أي أمَّةٍ تخرج عن هذه الثقافة أمَّةً مارقة همجية يجب نبذها والقضاء عليها، فإذا ما نجح الغرب بالفعل في نشر هذه الثقافة وتعميمها في العالم كله كما يطمح، فمن سيكون العدو حينئذ؟ فإذا كانت هناك ضرورة دائمة لوجود عدو تتوحد الأمة المسيحية ضده فما هو موقفها من العولمة؟ ولذلك يحاول الغرب تطبيق العولمة بطريقة انتقائية للحفاظ على بعض الفئات في خانة العدو حتى تتمكَّن الحضارة الغربية من استحضار خصوصيتها وتميُّزِها، وفهم حدودها.

الثقافة ورؤية العالم:

يُقْصَد برؤية العالم تصوُّر الشخص أو الفئة عن العالم الذي يعيش فيه، وقدرته على تفسيره، ومعرفة طبيعة وظيفته فيه، وحدود الدور المتُاح له، وضبط علاقته بسائر البشر وبالبيئة المحيطة.

يرى بيتر بيرجر (Peter L. Berger) أن الثقافة هي محاولة لاستكمال أو معالجة الخلل الناتج في علاقة الإنسان بالبيئة المحيطة، وهذا الخلل قد يكون عدم قدرة الإنسان على فهم بعض الأمور. ومن الملاحظ هنا أن بيتر بيرجر يرى الثقافة شيئًا مكمِّلا وليس أساسيًّا، وإن كانت ضرورية لأن الإنسان لا

يمكن أن يعيش في عالم غامض لا يفهمه، إلا أنه كلما تقدَّم الإنسان وتكشَّف غموض العالم بالنسبة له فهو لم يعد في حاجة للثقافة من وجهة نظر بيرنر.

فمثلا تفسِّر هذه النظرية تصوُّر الإنسان البدائي الذي اعتاد على الحياة داخل مدينته الصغيرة المحاطة بالأسوار، وارتبطت علاقاته وحياته واطمئنانه بهذا المحيط الضيق داخل المدينة، فكانت ثقافته وتصوُّره أن خارج هذه المدينة يوجد الأشباح واللصوص وكل ما هو ضار وسيئ، فهذه الثقافة في الحقيقة جاءت لتفسير هذا الغموض الموجود خارج أسوار مدينته بما يتوافق مع مصالحه المادية والمعنوية.

ولا شك أن هذه النظرية هي انتصار للجانب المادي على الجانب المعنوي. ومن أهم الاعتراضات على هذه النظرية هي كوننا لا نزال في حاجة إلى الثقافة مع ما وصل إليه الإنسان في عالمنا من تقدُّم، وما وصل إيه طموحه وإنجازاته.

نشأت بعض النظريات التي بَنَت على كلام بيرنر مع بعض التعديلات، مثل ماري دوغلاس (Mary Douglas) والتي وافقت بيرنر إلا أنها استثنت بعض الجوانب التي سيظل فيها الإنسان في حاجة للثقافة مهما أزال من غموض العالم المحيط به، وهو الجانب المعياري من الصواب والخطأ، فهذه المعايير تصيغها المجتمعات في ثقافتها، ولذلك ما يتقبَّلُه المجتمع الغربي قد يكون مرفوضًا في المجتمع الشرقي نتيجة لاختلاف الثقافة بينهما، والعكس.

وتعتبر روية بيرنر وماري دوغلاس سطحية بالنسبة لمجتمعنا الإسلامي، لأن الإسلام جاء بالفعل بتنظيم رؤية الإنسان للعالم، وعلاقته بالله، وعلاقته بالطبيعة، وعلاقته بأخيه الإنسان، دون أن يكون هناك خلل.